

صحة طبيب إنسان

لإنقاذ العمال من الانتحار بالجوع

بقلم الأستاذ سيد قطب

قدم الدكتور الفاضل عبد المجيد رمزى مدير قسم المسائل الصحية بوزارة الصحة إلى معالى وزيرها مشروعا لتحسين الحالة الصحية والاجتماعية للعمال - وردت في مقدمته هذه الفقرات :

”إن هذا البلد سائر في طريق الفناء، يأكل بعضه بعضا كلما كثر السكان، ونشطت الصناعة والأعمال فيه . وأرى أنه لا بد من العمل السريع لتحسين حال العمال صحيا واجتماعيا لدور هذا الخطر الناتج عن قلة الأجور ، وأنه لا فائدة من كل علاج أو إصلاح آخر .“
”وإني بصفتى من رجال الصحة أطلب رفع أجور العمال مهما كانت النتائج الاقتصادية . فما نطلب إلا حقا شرعيا ، فان كانت أوضاعنا لا تطابق هذا الحق فيجب أن نعدلها ، لأن المبادئ الاقتصادية فى جميع أنحاء العالم كلها تقريبا للفرد من حق الحياة . ولهذا يجب أن تنتهى من هذه المشكلات الصحية لتتفرغ الوزارة لأعمال صحية أخرى كمسئون النسل وتكوين البنية المصرية“ .

وهذه صحة إنسان قبل أن تكون صحة طبيب ، أو صحة طبيب إنسان ، يهوله انحدر الطبقات العاملة إلى الموت البطيء ، بالجوع بسبب حالة الغلاء الراهنة .

بين يدي وأنا أكتب هذه الكلمة إحصاء عن الأرقام القياسية العامة لتنفقات المعيشة فى شهر أبريل الماضى ، ومنه يتبين أن هذا الرقم هو ٢١٦ (١٠٠ سعر ما قبل الحرب) مقابل ٢١٢ فى شهر مارس السابق عليه . وفى أبريل سنة ١٩٤١ كان الرقم القياسى ١٦٤ أما فى أبريل سنة ١٩٤٠ فكان ١٣٧ فقط .

ولقد كان مستوى معيشة هذه الطبقات . نحطأ الى أقصى درجات الاعطاط قبل الغلاء وقبل ارتفاع الأسعار الى هذا الحد المهبط ، فكيف يكون هذا المستوى الآن ؟ إنه يكون كما يصغه حضرة الطبيب الإنسان حين يقول : ”إن هذا البلد سائر في طريق الفناء يأكل بعضه بعضا .“

ويقول حضرة الطبيب فى صحته الإنسانية : ”وإني بصفتى من رجال الصحة أطلب رفع أجور العمال مهما كانت النتائج الاقتصادية“ فتفهم من هذا أنه لم يشأ الدخول فى تفصيلات اقتصادية لأن الخطر الذى يراه ماثلا أمامه ترون بإزائه كل العوامل الاقتصادية

فحسب أن نقول لحضرتة ولمن يتخذون بهتويلات أصحاب رؤوس الأموال عن أخطار رفع الأجور وعن أثرها في اضطراب الموازين الاقتصادية في محيط الصناعات: إن هذه الأخطار لا وجود لها في الظروف الحاضرة، وإن أرباح الشركات والملاك في هذه الأيام مضاعفة أضعافا كثيرة، ولن تتأثر بارتفاع أجور العمال إلى الحد المعقول.

وعلى سبيل المثال نورد الجدول الآتي الذي يبين ارتفاع أسعار الأسهم في بعض الشركات.

الزيادة المئوية	سعر السهم		اسم الشركة
	١٩٤٢-٤-٣٠	١٩٣٩-٤-٢٩	
٢١٥ في المائة	٤١٥ قرش	١٣١,٥ قرشا	الملح والصدوا
» ٣٢٧	» ١٥٧٠	» ٣٦٧,٥	المالية والصناعة
» ٢٩٧	» ١٤٦٠	» ٤٩١	الغزل الأهلية
» ٢٦١	» ١٣٠٦	» ٥٠٠	مصر للغزل
» ١٦٧	» ١٩٠٠	» ٧١٠	الأممنت المصرية
» ١٠٠	» ٨٦	» ٤٢,٦	حلج الأفطان
» ٣٧٦	» ١٥٠٦	» ٣١٦,٣	بوموتى
» ٢٨٥	» ١٥٠٠	» ٣٨٩,٦	الكراون برورى

فما معنى هذا؟ معناه أن رأس مال حاملى الأسهم قد تضاعف عدة مرات، في حين أن أقصى زيادة وصلت إليها أجور العمال في بعض الشركات هي ١٠ في المائة وفي أحوال نادرة بلغت ٢٥ في المائة لصغار العمال، بينما لم تزد شيئا في شركات أخرى كثيرة.

وأما كبار الملاك والزراع فقد زادت أرباحهم كذلك بما يقرب من هذه النسب إذ ارتفعت أثمان الأراضي وإيجاراتها كما ارتفعت أثمان الأصيل ارتفاعا فاحشا بالنسبة لما قبل الحرب، ولم يزيدوا أجر العمال في أراضيهم إلا بنسب ضئيلة. وحسبنا أن نذكر أن ممن إردب القمح كان قبل الحرب لا يتجاوز ١٧٠ قرشا فوصل الآن إلى نحو ٤٠٠ قرش في السوق الحرة، بل وجد من التجار المهريين من يشتري الإردب بخمسة جنيهات. فكانت نسبة الزيادة المئوية تعادل ٢٥٠٪ تقريبا.

فإذا فرضنا أن نفقات الانتاج قد ارتفعت بما يعادل ١٠٠٪ كان من ذلك أن صافى أرباح الملاك والمزارعين حوالى ١٥٠٪ على أقل تقدير.

فما معنى هذا وذلك؟ معناه أن الأثرياء يزيدون ثراءً بسبب الحرب، وأن الفقراء يزيدون فقراً، وأن الملايين العاملة في هذه البلاد تتعرض للانتحار عن طريق الجوع، كما تتعرض الثروة القومية للبوارج في سبيل إشباع نهمة لا تشبع، وفي سبيل الترف الذي يتمتع به بضعة ألوف من الأغنياء؟

وبينا نتجه مصر وحدها دون بلاد العالم هذا الاتجاه الخطر نسمع مستر إيدن وزير خارجية إنجلترا يخاطب في أديره فيقول:

”أول شيء يجب أن نعمله هو أن نفهم الأمور بغير الطريقة التي فهمناها بها من قبل فتؤمن بأن علينا تبعة مباشرة لا مفر منها وهي تبعة صون السلام في جميع العصور.

”ولن تذوقوا طعم السلام بدون إصلاح اجتماعي، فإذا انتهت الحرب وأصبح في هذه البلاد ثلاثة ملايين من العمال المتعطلين عن العمل، وفي أوروبا وأمريكا وآسيا ملايين ضيرهم فإن العالم لن يعرف معنى السلام.

”وإذا ظهرت في العالم آثار البطالة وسوء التغذية وهبوط مستوى المعيشة إلى درجة الحيوانات، وانتشرت الفاقة بدون علاج مع إمكان علاجها فإن أركان السلام تصبح ممرضة لخطر“

فهذه كلمات رجل عظيم منزع الآفاق لا تلهيه مشاغل الحرب والسياسة عن النظرة البعيدة إلى حقيقة المؤثرات الاجتماعية العالمية، فهو يعلق سلام العالم على الإصلاح الاجتماعي الذي يكافح التمثل، ويقاوم سوء التغذية وهبوط مستوى المعيشة، وهو ينذر مستهنيه بأنهم لن يجدوا السلام إذا أهمل هذا الإصلاح.

وكل الدلائل تشير إلى أن العالم كله يتجه هذا الاتجاه، وأنه لا مفر لأمة من أم الأرض عن مسيرة التيار، وإلا كانت ناشزة في عالم يتجه كله وجهة معروفة.

إن إنجلترا تجي الآن من الضرائب ما يساوي ٩٥ في المائة في بعض الحالات وأمريكا تجي ٩٩ في المائة في أحوال خاصة، وتبلغ النسبة في تركيا ٩٠ في المائة كذلك. ويخطف بعض من يعتقدون أن ضرورات الحرب وحدها هي التي تقتضي رفع نسبة الضرائب على الإيرادات العالية، وأن الأمور ستعود إلى ما كانت عليه قبلها. فقد تنخفض هذه النسب بعد الحرب، ولكنها لن تعود إلى ما كانت عليه، لأن الاتجاه العالمي كله يحاول تحقيق العدالة الاجتماعية كما يحاول تقريب الفوارق بين الطبقات وهذه الضرائب وسيلة لا بد منها لتحقيق هذين الغرضين، كما أنها وسيلة لتنهض الميزانيات العامة بما يطلب إليها من الخدمات الاجتماعية.

وكذلك الحال في العناية البائدة بالطبقات العاملة في جميع شعوب الأرض ، فليس منشؤها أن هذه الطبقات هي أدوات النصر في الحرب الحاضرة فحسب ، ولكن منشأها هو هذا الاتجاه العالمي نفسه إلى تحقيق مستوى عادل للعيشة بين هذه الطبقات يتحقق معه السلام الذي ترجوه الشعوب بعد هذه الأحوال .

وكل إصلاح صحى أو اجتماعى مقضى عليه بالفشل ما لم يرتفع مستوى حياة هذه الطبقات ، وقد دلت كل المحاولات التي أراستها الهيئات الاجتماعية على هذه الحقيقة . فالدكتور عبد المجيد رمزى يقول : ” وأرى أنه لا بد من العمل السريع لتحسين حال العمال صحيا واجتماعيا لدرء هذا الخطر الناتج عن قلة الأجور ، وأنه لا فائدة من كل علاج أو إصلاح آخر“ . ومستر ”رزبني“ الذي تبرع بعدة إصلاحات اجتماعية في ”عزبة الحديدى“ لتحسين حال مزارعيه يقول في كتاب منه بلريدة الأهرام بعد أن نوهت بعمله الاجتماعى المشكور :

” قرأت بكثيرين الاهتمام البيان المنشور في الأهرام عن الطرق المتخذة عندنا منذ بضع سنوات لتحسين حالة الفلاحين ومعيشتهم . وإنى أشكركم كل الشكر على اهتمامكم بهذا العمل . غير أنى أرى من واجبي أن أقول : إن كاتب البيان قلل من ذكر المانع الأساسى الحائل دون هذا التحسين ، وهو ضآلة إيراد السكان الزراعيين .

” وإنى لأعترف بالرغم مما أراه من فلاحينا من صدق المعونة وحسن الإرادة بأن النجاح الذى أمكن تحقيقه لم فيما يختص بالصحة ونظام المعيشة ما زال قليلا لا يذكر ، وذلك للسببين الآتيين :

” الأول — إن قلة كسبهم لا تسمح لهم بأن يتناولوا ما يحتاجون إليه من الأغذية الصالحة اللازمة لشفائهم من الأسمام التي يشكون منها . فهم بالرغم مما يتسبب لهم من الأدوية والإرشادات الطبية لا يفارقهم فقر الدم وضعف البنية .

” الثانى — أنه ليس عندهم من قطع الملابس ما يمكنهم من تغيير الأثواب التي يلبسونها ، وهم لذلك لا يستطيعون استعمال هذه الأثواب القليلة بحالة نظيفة ملائمة . ولما كان هذا يتعذر معه تنظيف أجسامهم فإنهم يظلون معرضين للأمراض الجلدية والجراثيم وغيرها .

” وإذا كنت قد أردت إبراز هذه الناحية من المسألة ، فذلك لأنى أنا والمساعدة الاجتماعية نرى أن الخدمة الاجتماعية والمعاملة القائمة على الرفق والإحسان لا تكفيان وحدهما لإحداث تحسين محسوس في حياة الفلاحين“ .

وهذه الملاحظات العممية المبنية على التجربة من رجل لا يمكن اتهامه بالمغالة والانحياز إلى صف العمال الزراعيين لأنه هو نفسه مالك كبير . . . هذه الملاحظات جديرة بالنظر ، وبخاصة في هذه الأيام التي يقدم فيها معالي وزير الصحة مشروعاً لتحصين القرية متضمناً مثل هذه الفقرات :

(١) إنشاء مغاسل ثياب وحمامات متفصاة للنساء ولأطفال .

(٢) إنشاء حمامات للتلاميذ في المكاتب العامة والمدارس الإلزامية القروية .

(٣) إنشاء عيادة طبية مجانية وخدمة صحية للقرى وسكانها وتلاميذها يتولاها طبيب مقرن على الشؤون الصحية القروية وعلى طرق تشخيص وعلاج ومنع الأمراض الأكثر انتشاراً في القرى ، وخاصة الأمراض المتوطنة ، والأرمامد وأمراض الجلد والأمراض الوبائية وأمراض سوء التغذية ، ويتولى كذلك الدعاية الصحية بين الرجال .

فأشد ما نخشاه ألا يجد هؤلاء القرويون من الثياب ما يفسلون في هذه المغاسل ! ولا يجدوا من الثياب النظيفة ، لا يلبسونه بعد الحمامات ! وإن يظلوا بسبب هذا معرضين للأمراض الجلدية والجراثيم وغيرها كما يقول موسيو "رزيني" على الرغم من "الدعاية الصحية" التي يكفلها مشروع تحسين القرية . وأخشى ما نخشاه كذلك أن يتحقق ما يقوله موسيو رزيني في فقرة أخرى وهو : " إن قلّة كسبهم لا تسمح لهم بأن يتناولوا ما يحتاجون إليه من الأغذية الصالحة اللازمة لشفائهم ... فهم بالرغم مما يتيسر لهم من الأدوية والإرشادات الطبية لا يفارقهم فقر الدم وضعف البنية " !

ذلك ما نخشاه ونخشى معه أن تضع ثمره هذا المشروع الضخم الذي ستفق عليه الدولة مليونين ونصف المليون من الجنيهات في كل عام ، والذي ترجو البلاد من ورائه خيراً عظيماً للريف المحزون المحروم .

ومن الإنصاف أن يقال : إن معالي وزير الصحة أدى واجبه بهذا المشروع ، وإن رجاله يؤدون كذلك واجبهم ، وإن أحدهم يصبح صيحة الإنسانية الصادقة في تقرير رسمي مقدم للوزير . فإذا جاءت الريخ بما لا تشتهى سفيتهم ، وإذا قصرت الوسائل الاقتصادية والتشريعية عن معارفهم في واجبهم ، وذهب تفصيلها بفائدة مشروعاتهم ، وبالأموال العامة المرصدة لهذه المشروعات ، فليس الذنب في ذلك ذنبهم ، وليسوا هم المسئولين بعد هذا الجهد المشكور .

وما يدعو إلى الأمل اهتمام وزارة الشؤون الاجتماعية بقوانين العمال ، وفي هذا العدد كلمة مستقلة عن هذه القوانين .